إعداد
د. سعيد إسماعيل صيني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، ***وبعد:***

لقد شغلت قضية «القدر» ذات الصلة بقدرة الإبداع والمحاسبة عند الإنسان أذهان رجال الدين والفلسفة والمفكرين عبر التاريخ. ويستخدم كثير من الناس القدر كبش فداء لأخطائهم التي تسبب لهم المتاعب. ويستخدمه البعض الآخر عذراً للبقاء عاطلين وأعضاء خاملين في مجتمعاتهم.

ولعل السبب الرئيس في صعوبة استيعاب مفهوم القضاء والقدر، عند كثير من الناس، يعود إلى صعوبة التحرر من الصفات البشرية، وبالتالي صعوبة التفريق بين الصفات الربانية المتفردة في حقيقتها وكيفيتها والمطلقة، والصفات البشرية القاصرة والمقيدة. وهذا التفريق ضروري؛ فصفة الجبار والمتكبِّر ـ مثلاً ـ

هي صفات كمال لله سبحانه وتعالى، بينما هي صفات نقص في المخلوقات. ومن جهة أخرى، فإن صفة الذكي واللبيب والعاقل صفات حميدة للإنسان[١] بينما هي صفات قاصرة لا تليق بالخالق ولم ترد في الكتاب والسنة.

والقدر ركن من أركان الإيمان، لا بد للمسلم أن يؤمن به. فالحاجة إلى بيان حقيقته عظيمة ولا سيما في هذا العصر الذي تأثر فيه بعض المسلمين بحضارة الشك في كل ما ينسب إلى الدين نتيجة لسيطرة الفكر اللاديني أو الإلحادي المتخفي. فهدف هذا الكتيب على وجه التحديد الإجابة على التساؤلات التالية:

١. كيف كان خلق الإنسان وما طبيعة الإنسان؟

٢. كيف يكون الإنسان مسؤولاً إذا كانت أفعاله هي من خلق الله؟

٣. كيف يحاسب الإنسان إذا كان لا يستطيع فعل شيء بدون إذن الله؟

٤. كيف يكون الإنسان مسؤولاً إذا كان لا يستطيع الفرار من القدر؟

ونظراً لتعقيد مسألة القضاء والقدر فإن المؤلف سوف يستخدم بعض الأمثلة في المستوى البشري لتوضيح الأفكار الرئيسة، مع الفارق الكبير بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

وجدير بالملاحظة أن هذا البحث مؤسس على البحث الأصلي في الموضوع بعنوان «كشف الغيوم عن القضاء والقدر» ولمن أراد التفاصيل فلا بد من الرجوع إليه .

وأسأل الله أن يجزل المثوبة لكل من استفدت من علمه وملاحظاته، والشكر والمنة لله من قبل ومن بعد.

د.سعيد إسماعيل صيني

(١) ابن حيدرة ص ١٤.

خلق الإنسان وطبيعته

هناك عدد من النظريات حول أصل الإنسان، ومن أبرزها: نظرية التطور، والنظرية الدينية. وليس من المستغرب أن ترفض الحقائق القرآنية والأدلة العقلية نظرية التطور[1].

فالله سبحانه وتعالى يحكي لنا قصة خلق آدم (أبو البشر) بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨،٢٩] وبهذا تؤكد الآيتان بوضوح الخلق الفوري لآدم عليه السلام مفندة مزاعم نظرية التطور. ويؤكد الله سبحانه وتعالى أن الإنسان تم خلقه في أحسن صورة. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. وخلقه عاقلاً وناطقاً منذ البداية. يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥][2].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ

---

(١) صيني، مدخل إلى الإعلام الإسلامي ص ١٧٩ ـ١٩٧.

(٢) وانظر الآيات السابقة.

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٨].

ويبدو أن خلق الإنسان بصفاته الخاصة المميزة أثارت حسد إبليس الذي كان من الجن خلقه الله من قبل بقدرات عقلية تميز بين الأشياء. كما زوّده الله بالهداية المتمثلة في أمره تعالى له بالسجود لآدم ومنحه حرية الاختيار. وكان في إمكان إبليس اختيار طاعة ربه عندما أمره بالسجود لآدم كما فعلت الملائكة، ولكنه بمحض اختياره وبعجرفته اختار إساءة استعمال ما وهبه الله. ومع هذا فإن إبليس يكذب ويقول بأن الله هو الذي أغواه قائلاً: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وهي دعوى كل من يتبع هواه ويعصي أوامر الله[1]. وقد منح الله للجن القدرة على التمييز والهداية وحرية الاختيار، فكانت الجن أيضاً من المخلوقات المكلفة.

وعمل إبليس فوراً على تنفيذ تهديده فبدأ بإغواء آدم وحواء عليهما السلام، يقول تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٢]. بيد أن آدم وحواء تابا إلى ربهما، يقول تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهكذا بدأ الصراع بين آدم وحزبه الذي يمثل الخير، وإبليس وحزبه الذي يمثل الشر، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

(١) انظر تفسير الآيات في الطبري..

وهكذا بدا واضحاً أن المهمة الأساسية لآدم عليه السلام هي نشر الخير ومحاربة الشر الذي يمثله إبليس وحزبه. وقد شاءت عدالة الخالق أن يمنح فرصة متساوية للجنسين: الإنس والجن. فالإنس يستطيعون اختيار الضلال والانضمام إلى حزب إبليس، وتستطيع الجن اختيار الهداية والانضمام إلى حزب آدم عليه السلام.

ومن الآيات التي تؤكد أن الجن والإنس مخلوقات مكلفة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

أصل التكليف:

عندما نقول بأن الإنسان مخلوق مكلَّف نقصد أنه مسؤول عن أقواله وأفعاله في هذه الحياة الدنيا. ويعود أصل التكليف إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٢][(١)].

وكون الإنسان خليفة في الأرض يعني أن له مكانة متميزة ومرتبة خاصة لها متعها وامتيازاتها، ولكن هذا أيضاً يعني أن عليه أعباء وأنه سيكون عرضة للإغراء. وكون الإنسان خليفة أيضاً يعني أن الله أهّله لتحمل المسؤولية المناطة به. ومن زاوية أخرى، فإن الخليفة يمكنه التمتع بميزات منصبه بشرط أن يؤدي مسؤولياته. ولعل هذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢][(٢)].

---

(١) وانظر الكتاب المقدس التكوين ١ ـ ٤.

(٢) وانظر دسوقي ص ١٠٨ ـ ١٢٣ لمناقشته.

ومن هذه الامتيازات جميع النعم التي أنعم الله بها على الإنسان والتي يعجز عن حصرها. وهذه الحقيقة يؤكدها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]، ويقول تعالى في آية ثالثة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

وكما يبدو واضحاً فإن هذه النعم ليست للاستمتاع بها فحسب ولكن هي أيضاً وسائل لضمان أقصى حدود السعادة في الحياة الأبدية في الآخرة. يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]. وبعبارة أخرى، فإن هذه الحياة لا تمثل قصة كاملة ولكنها مرحلة انتقالية إلى الحياة الأبدية التي تحددها هذه الحياة بصفتها اختباراً. ومن هنا تأتي مسؤولية المخلوقات المكلفة .

فهذه الحياة ليست سوى اختبار موضوعي تقتصر فيه مهمة المخلوق المكلف على اختيار إجابات جاهزة متنوعة تتأرجح بين الصواب التام والخطأ التام. وعقدة هذا الاختبار أن مدته مجهولة، فقد ينتهي الاختبار في أي لحظة غير متوقعة مع الأهمية البالغة للاختيار الذي يقوم به الإنسان في آخر لحظة من حياته، فقد تكون مصيرية.

المنح الخاصة والتكليف:

لقد زوَّد الله المخلوقات المكلفة (الجن والإنس) بمنح ثلاث خاصة لكي يتمكنوا من تحمُّل المسؤولية. وهذه المنح هي: العقل المميز، والهداية، وحرية الاختيار.

العقل المميِّز:

ميز الله المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) بالعقل أو بالقدرة العالية في إدراك الأشياء التي تتعرض لحواسها الخمس، والتمييز بينها، وتخزين أنواع عديدة منها لفترات طويلة، وتنمية معلومات إضافية منها للاستفادة الفورية أو الآجلة.

فالمخلوق الذي لديه عقل يستطيع إدراك ما يحيط به من نعم وما يتوفر له من إمكانات، ويمكنه استيعاب التعاليم الربانية التي تهديه إلى سبل الخير والنجاح والفلاح وتحذره من سبل الشر والفشل. كما يستطيع تسخير هذه الإرشادات في توجيه أفكاره وعواطفه وأقواله وأفعاله، لما فيه صلاح دينه ودنياه.

وبهذا يتضح أن العقل نعمة عظيمة تستحق ثمناً غالياً وتستوجب المحاسبة لمن يملكها، وليس هناك مخلوق سوِيّ يفضل حالة الحرمان منها، أي أن يصبح مجنوناً أو معتوهاً أو فاقداً للوعي طوال حياته، ويُعفى من المحاسبة[١].

الهداية الربانية:

وردت كلمة الهداية في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في مواضع عديدة إما مستقلة أو مقرونة بكلمة الضلال، وقد يأتي مدلولها بعبارات أخرى. وعموماً يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة رئيسة من الهداية: الهداية الفطرية، والهداية الإرشادية، والهداية المضمونة[٢].

---

(١) وأما ما ورد عن بعض الصالحين من تمنيهم لو أن أمهاتهم لم تلدهم أو أنهم كانوا من المخلوقات غير المكلفة، فذلك تعبير عن شدة الخشية من الله وقد اقتربت ساعة الحساب وليس رفضاً منهم لنعم الله التي استمتعوا بها في حياتهم.

(٢) هذا التقسيم مستفاد من استقراء النصوص القرآنية والحديثية ومن ابن القيم، شفاء ص ٦٥ ـ ٨٥ وله تفصيلات مفيدة.

أ ـ الهداية الفطرية:

وينقسم هذا النوع من الهداية إلى قسمين:

١ ـ القسم العام لجميع المخلوقات المكلفة وغير المكلفة. وهي هداية المخلوقات إلى مصالح معاشها. ويندرج ضمن هذه الهداية ما يمكن تسميته بالمعرفة الفطرية أو الغريزية التي يولد بها المخلوق ومثالها التنظيمات المتقنة التي تعيشها الحيوانات والحشرات. ومن هذه التنظيمات ما يعيش فيها النمل والنحل، ويتمثل في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠][١].

٢ ـ القسم الثاني، ويتمثل في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] ولعل هذه هي الفطرة التي يشير إليها الرسول ﷺ، حيث يقول: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**..». قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٢].

وهذه النصوص تؤكد أن الله قد زوّد الإنسان بمعرفة التوحيد أو هداه إلى وحدانية الله بالفطرة. ولكن هذه الهداية التي لم يحرم منها أحد من بني آدم ليست ضماناً للنجاح في الاختبار، فقد تكون لصالحه إذا استخدم الإمكانات الأخرى التي منحها الله له وفقها، وقد تكون شاهدة عليه إن هو تجاهلها عند استخدام الإمكانات التي منحها الله له[٣].

---

(١) وانظر: الأعلى: ١ ـ ٣؛ الإنسان: ٣.

(٢) البخاري: القدر، الله أعلم؛ مسلم، القدر، معنى كل مولود.

(٣) ابن تيمية، مجموع (٤/٢٤٣ ـ ٢٤٧)؛ ابن القيم ص ٢٢، ٢٩ ـ ٣٠؛ والحواشي: ٣٥ ـ ٣٨ في الفصل الثالث.

ب ـ الهداية والإرشاد:

ويتمثل النوع الثاني من الهداية في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فقد أرسل الله الرسل بالهدى الرباني ليذكروا الناس بالميثاق الذي قطعوه على أنفسهم ويزودهم بالإرشادات التفصيلية المناسبة لكل مرحلة من المراحل الرئيسة لحياة المخلوقات المكلفة في الأرض.

ج ـ الهداية المضمونة:

ويتمثل هذا النوع الثالث في الهداية التي يختص الله بها بعض عباده. وهي كالهداية التي اختص الله بها أنبياءه ورسله مكافأة لهم أو تفضلاً عليهم. وهذه الهداية إذا منحها الخالق لبعض عباده فهو المتصرف في ملكه، وإن منعها عن كثير من عباده وتركهم لكسبهم فقط، فإنه لا يظلم بذلك أحداً. فأنت وإن كنت مخلوقاً تستطيع أن تمنح من مالك لمن شئت، بعد أن تؤدي حقوق الله، وتمنعه عمن تشاء، دون أن يكون في ذلك ظلم لأحد.

حرية الاختيار:

لا يشك عاقل في أن المخلوقات المكلفة تتمتع بدرجة من حرية الاختيار كبيرة نسبياً، وهبها الله لها. ويؤكد الله سبحانه هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣][١]. كما يؤكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة في قوله: «**لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة**»[٢].

(١) وانظر الفرقان: ٥٧؛ المدثر: ٣٦،٣٧؛ والبلد: ١٠.

(٢) البخاري: الرقاق، صفة الجنة.

وهذا يعني أن حرية الاختيار ذات درجات متفاوتة، وليست إما هذا أو ذاك. ويصدِّق هذه الحقيقة قوله ﷺ أيضاً: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم**»[1].

بيد أن الله وضع حداً فاصلاً بين التجاوز الذي قد يُغفر والتجاوز الذي لا يُغفر بتاتاً، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] فقد يغفر الله للمخلوقات المكلَّفة عصيان بعض أوامره، ولا سيما إذا كان العصيان بسبب الغفلة أو التهاون، وليس بسبب المكابرة أو الرفض لأوامر الله.

ومن جهة أخرى فإن المخلوقات المكلفة تمتلك حرية أوسع ـ وربما كانت غير محدودة بشيء ـ في عالم الخيال، أي التفكير وأحلام اليقظة، ولا يحاسب العبد على ما يجري فيها ما لم يعمل على التعبير عن هذه الأفكار المحظورة أو يعمل على تنفيذها[2]. أما في مجال الواقع فإن هذه الحرية موجودة ولكن مقيدة بعوامل كثيرة تخرج عن مجال سيطرة هذه المخلوقات[3].

وعموماً فإن حرية الاختيار ليست مطلقة. فمثلاً، يقول شعراوي بأن الإنسان فيه شيء من صفات الجماد، والنبات، والحيوان، ويتميز عنها بالقدرة على التفكير. وهو فيما يخص مكوناته الثلاثة الأولى مُسيَّر. فهناك أشياء تحدث له أو يقوم بها جسمه بطريقة تلقائية ـ وغالباً بدون وعيه ـ حسب نظام تلقائي، وليس من مصلحة الإنسان التدخل فيه إلا مضطراً لإصلاحه من خلل طرأ عليه بسبب متعمد أو غير متعمد. ومن هذه الأنظمة نظام الجهاز الهضمي، ونظام التنفس[4].

---

(١) البخاري: الاعتصام، باب قول النبي؛ مسلم: الفضائل، باب توقيره.
(٢) البخاري: الرقاق، من هم بحسنة.
(٣) الخطيب، القضاء ص ٤٩ ـ ٥١.
(٤) شعراوي ص ٣٧ ـ ٤٣.

الله خالق كل شيء

ولكن الإنسان مسؤول

وقد يتساءل الإنسان: إذا كان الله خالق كل شيء فكيف يكون الإنسان مسؤولاً عن أفعاله؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في حقيقة القضاء وطبيعته.

القضاء:

لقد وردت كلمة «القضاء» أو مشتقاتها في مواضع متفرقة من القرآن الكريم، كما وردت كلمة «القضاء» بالصياغة نفسها في بعض الأحاديث النبوية، وإن كانت معدودة، منها قول النبي ﷺ: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»(١)، وقوله: «**فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**»(٢).

ووردت كلمة «القضاء» في صيغ زمانية مختلفة، في القرآن الكريم في عدد من المواضع، إذ وردت بصيغة المضارع والماضي والأمر.

وعموماً يمكن حصر مدلولات كلمة «القضاء» ومرادفاتها فيما يلي(٣):

١ ـ **الأمر الشرعي**، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفي إمكان العبد مخالفة الأمر الشرعي بإذن من الله، إلا أن الانصياع له شيء حتمي شرعاً لكي يضمن العبد دخول الجنة.

---

(١) الترمذي: القدر، ما جاء لا يرد القدر؛ وقد اعتبره حسناً غريباً؛ وصحح ابن حبان والحاكم إسناده. وانظر المباركفوري (٦/٢٩٠).

(٢) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ونسبه إلى النسائي والترمذي وورد في الترمذي بلفظ «القدر» في أبواب القدر؛ وانظر: «**إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيراً له**». أحمد: (١١٧/٣، ١٨٤)؛ وانظر: البخاري: القدر، من تعوذ؛ البخاري: بدء الخلق، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾.

(٣) ابن تيمية، مجموع (١٨٧/٨ ـ ١٩٠)؛ ابن القيم، شفاء ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

٢ ـ الأمر الكوني، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]، وقد يأتي التعبير عنه بكلمات أخرى غير كلمة القضاء مثل أمر، أراد[١]، بعث[٢]، جعل[٣]، حكم[٤]، كتب[٥]، قدّر[٦]. ولا يمكن للإنسان مخالفة الأمر الكوني بتاتاً.

وما يعنينا هنا هو المدلول الثاني لعلاقته بالسنن الكونية (النظم التلقائية) وعلاقة هذا المدلول بقدرة الله المطلقة في الخلق وفي تدبير شؤون الكون وفي الهيمنة التامة عليها من جهة، وعلاقة ذلك كله بفعل العبد الذي يحاسب عليه من جهة أخرى.

فالقضاء المقرون بالقدر هو الأمر الرباني المباشر النافذ حتماً، وهو أيضاً السنن الكونية التي خلقها الله، أي السبب والنتيجة الحتمية. ومن السنن الكونية تتكون شبكة عظيمة محكمة من الأنظمة التلقائية (الأتوماتيكية) التي تسير هذا الكون بمشيئة الله. فالله سبحانه وتعالى أوجد الكون، ويخلق كيف يشاء ما فيه ويسيره بقوله: كن فيكون (الأمر المباشر) وبالسنن الكونية أو النظم التلقائية التي خلقها.

النظم التي تعمل تلقائياً (الأتوماتيكية):

تقوم السنة الكونية التي تتكون من سبب ونتيجة حتمية محددة بوظيفة ذات أهمية بالغة. فالسنة الكونية هي الوحدة الأساسية لبناء أي نظام يعمل تلقائياً، يمكن إدراك أجزائه غير المحسوسة ويمكن التنبؤ بنتائج حركته

---

(١) يس: ٨٢.
(٢) الإسراء: ٥.
(٣) الأنبياء: ٧٣.
(٤) المائدة: ١.
(٥) الأنعام: ٥٩.
(٦) يونس: ٥.

المستقبلية. ويعبِّر ابن تيمية عن هذه الحقيقة قائلاً: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»[1].

ولتوضيح المقصود من هذه الحقيقة، نأخذ أبسط نظام تلقائي يتكون من وحدة واحدة، هي الساعة الأوتوماتيكية (التي تعمل تلقائياً) بدون الشد على «الزمبرك» أو «السستة» (تعشية الساعة) يومياً، وبدون بطارية أو أي نوع من الطاقة خارجية. هذه الساعة تعمل تلقائياً لأنها مزودة بزمبركين، عندما ينفرط أحدهما بالتدريج يشد على الآخر بالتدريج. فعملية انفراط الزمبرك الأول سبب لعملية شد الزمبرك الثاني. والاثنان يتبادلان هذه الوظيفة بطريقة تلقائية متتابعة لينتج عن ذلك نظام حركي تلقائي متكامل. وتقوم عملية الانفراط بوظائف أخرى متعددة مثل تحريك ترس عقارب الساعة، وتحريك ترس عقرب الدقائق، وتحريك ترس عقرب الثواني، وتحريك ترس اليوم، وتحريك ترس التاريخ. وهكذا يتكون لدينا نظام تلقائي يقوم بوظائف ذاتية متعددة دون الحاجة إلى مساعدة من العوامل الخارجية.

وما دامت الساعة تعمل فأنت تدرك، بدون أن تفتح الساعة وتنظر داخلها، أن أحد الزمبركين ينفرط بالتدريج والآخر يُشد عليه بالتدريج، وهذه عملية إدراك لشيء غير محسوس. وأنت تستطيع التنبؤ بأن عقرب الساعة الذي يشير إلى الساعة الواحدة سيشير بعد فترة زمنية إلى الساعة الثانية...إلخ وهذه عملية إدراك لشيء مستقبلي.

كما لاحظنا، فإن الساعة في المثال السابق ليست سوى نظام بدائي جداً. أما الكون فهو يتكون من شبكة ضخمة لا يعلم بضخامتها وأسرارها إلا الله خالقها. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩][2]

(١) ابن تيمية، مجموع (٨/٧٠).

(٢) وانظر ابن منظور لمدلولات قدر.

و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨][1] ولم يكتشف الإنسان إلا نسبة محدودة منها. فحتى في مجال العلوم الطبيعية لا يزال هناك الكثير مما لم يكتشفه الإنسان بعد[2]. ومن هذه السنن التي لم يكتشفها الإنسان تلك السنة الكونية التي تَمكّن بها أحد رجال سليمان عليه السلام من نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر[3].

وتؤثر السنن الكونية بعضها على بعض. فلو ألقيت بحجر إلى الأعلى بعيداً عن الجاذبية على سمت قدمك (سبب) فإن النتيجة الحتمية هي سقوط الحجر على قدمك (نتيجة) ما لم تتدخل سنة كونية تدفع الحجر بعيداً ـ أثناء سقوطه ـ أو تحرك قدمك من مكانها (سبب) فلا يسقط على قدمك (نتيجة).

ولعل هذه الحقيقة تفسر قول الرسول ﷺ: **«لا يرد القضاء إلا الدعاء»**[4]. فالدعاء لجوء إلى الله الذي خلق السنن الكونية كلها (أسبابها ونتائجها الحتمية). وبعبارة أخرى، يُعدّ الدعاء لجوءاً إلى القضاء المباشر أو الأمر الرباني المباشر المتمثل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]. فمن خلق السنن الكونية قادر على تعطيل النتيجة الحتمية للسنة الكونية أو تغييرها بتسخير سنة أو سنن كونية أخرى متى شاء وكيف شاء[5]. ومثاله ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام عندما أبطل الله مفعول النار التي أوقدها قوم إبراهيم عليه السلام لإحراقه، إذ يقول تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

---

(١) وانظر ابن تيمية، مجموع (١٣٣/٨، ٥٣٣ ـ ٥٣٥).

(٢) انظر مثلاً: ابن تيمية، مجموع (٦٨/٨ ـ ٧٠، ١٧٢، ١٩٦، ٤٨٦، ٥٢٠ ـ ٥٤١)؛ وابن القيم، شفاء ص ١٨٥ ـ ١٨٩؛ صيني، قواعد ص ٣٧ ـ ٥٩.

(٣) انظر النمل: ٣٨ ـ ٤٠، وانظر قطب، في ظلال القرآن (٢٦٤١/١٩ ـ ٢٦٤٢).

(٤) الترمذي، القدر، ما جاء.

(٥) انظر ابن تيمية، مجموع (١٦٧/٨ ـ ١٧٠)؛ والأشقر ٨٤ ـ ٨٦.

ومثال ذلك أيضاً الثلاثة الذين حبستهم صخرة سدَّت باب المغارة التي لجؤوا إليها وعجزوا عن تحريكها بالقوة فاستطاعوا بالدعاء تحريك الصخرة حتى تمكنوا من الخروج(١).

والسنن الكونية مختلفة من حيث القوة، ومتفاوتة من حيث شمولية التـأثير. فالنار في وضع معين يمكنها تبخير الماء؛ ولكن الماء إذا تم صبُّه على النار يمكن إطفاؤها(٢). وعلى الرغم من أهمية الحرارة ومصادرها فإن الله جعل الماء عصب الحياة كلها، حيث يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهو سبحانه خالق هذا الكون بكل ما يجري فيه بالأمر المباشر، وبواسطة السنن الكونية التي خلقها.

ومن الأسباب في هذه السنن الكونية ذات النتائج الحتمية جميع القرارات التي قد يتخذها المخلوق المكلف في حياته الدنيوية ولكل قرار نتيجته المحددة التي خلقها الله وأحاط بها علماً.

خلق الرب وفعل العبد:

إن الحقائق السابقة تؤكد أن الله فعال لما يريد وقادر على أن يفعل ما يشـاء متى شاء وكيف شاء. فهو سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء وليس في ذلك ظلم لأحد، وقادر على أن يهدي من يشاء وقادر على أن يضل من يشـاء(٣). ولكن هذه القدرة المطلقة والهيمنة الكاملة على ما يجري

---

(١) انظر النووي، باب إخلاص النية. وانظر الصالح (٤٨/١ ـ ٥١).

(٢) انظر مثلاً: ابن القيم، شفاء ص ١٨٥، السعدي، العقيدة ص ١٦٧ ـ ١٧٠، صيني، قواعد ص ٣٧ ـ ٥٨.

(٣) جميع آيات المشيئة تندرج تحت هذا المعنى. وانظر مثلاً الآيات: البقرة: ١٠٥، ٢٢٠، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٧٢؛ وانظر ابن تيمية، مجموع (٤٩٩/٨ ـ ٥٠٠).

في الكون لا تقتضي أنه سيظلم أحداً فهو ليس بظلام للعبيد[1].

فالله هو خالق الكون وما فيه من جمادات ونباتات وحيوانات ومخلوقات مكلفة وحركاتها وسكناتها، والسنن الكونية التي تحكمها وتسيرها بطريقة تلقائية، وجميع الصور المحتملة لاستخداماتها، خلقها وأوجدها من العدم. والله هو الذي خلق ما تتميّز به المخلوقات المكلفة من عقل وهداية، وحرية اختيار، وقدرات مختلفة.

فكل شيء وكل حدث، وكل فعل صغير أو كبير للعبد هو من خلق الله سبحانه وتعالى. فالله هو الذي خلق للعبد الأعضاء والقدرة على تحريكها بطرق مختلفة، والقدرة على تسخيرها لأغراض مختلفة. والله هو الذي خلق للعبد مجموعة من التكوينات العاطفية: الفرح والحزن والغضب... والله هو الذي خلق للإنسان القدرة على التفكير، والقدرة على التعبير عن مشاعره وأفكاره. وبعبارة أخرى، فإن المخلوق نفسه وجميع قدراته من خلق الله. فالأمر كما ورد في قول الإمام أبي حنيفة: «فلما كان الفاعل مخلوقاً فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة»[2].

وبهذا يتضح أن فعل العبد يقتصر على الاختيار من بين هذه السنن الكونية ذات النتائج الحتمية التي خلقها الله وخلق معها حريته في الاختيار المرهونة بإذن الله. ولهذا فإن المخلوق المكلف مسؤول عن نتائج هذا الاختيار، وقد يوضح المثال التالي هذه المسألة.

افترض أن مدرساً أراد اختبار طلابه فوضع لهم أسئلة ذات إجابات اختيارية فوضع عدداً من الإجابات لكل سؤال. وحتى يعطي فرصة كافية للاختيار وللتمييز بين الدرجات المتفاوتة للاجتهاد وللاستفادة من الدروس،

---

(١) انظر مثلاً: النساء: ٤٠؛ يونس: ٤٤؛ الكهف: ٤٩؛ آل عمران: ١٨٢؛ الأنفال: ٥١؛ الحج: ١٠.

(٢) أبو حنيفة ص ٤٥.

جعل الإجابات تتراوح بين الإجابات الخاطئة تماماً والإجابات الصائبة تماماً، كما في الرسم المبين التالي.

إجابات صائبة تماماً ---| ---| ---| ---| ---| إجابات خاطئة تماماً

فالمدرس هو الذي وضع الاحتمالات المختلفة للإجابة عن السؤال، وهو يحب بعض الاحتمالات (الإجابات) ويجيز بعض الاحتمالات، ويبغض بعضها الآخر. والطالب سيجيب حسب اجتهاده واستفادته من الدروس بمجرد الاختيار بينها. وقد يختار الإجابة الخاطئة، فينسب إليه الخطأ. وهو الذي يستحق صفة «المخطئ» لأنه هو المسؤول عن هذا الاختيار الخاطئ[١]. وأما المدرّس فلا يلحقه أي لوم مع أنه وضع بعض الإجابات الخاطئة بين الإجابات الاختيارية. بل يستحق الثناء لأنه أحسن في إعداد الاختبار وأتقنه حيث جعله يمثل جميع الاحتمالات الممكنة[٢]. فالاختبار الجيد يجب أن يتضمن جميع الاحتمالات التي تقع بين الضدين. فبالليل نعرف حقيقة النهار والدرجات المتفاوتة بينهما، وبالمرض نعرف حقيقة الصحة...، وبالفقر نعرف حقيقة الغنى...، وبالفشل نعرف حقيقة النجاح...، وبالألم نعرف حقيقة المتعة...

ويتضح من المثال السابق أن الخير والشر وما بينهما من احتمالات هي مخلوقات لله سبحانه وتعالى، خلقها وأعطى العبد فرصة كافية لممارسة صلاحياته باعتباره خليفة في الأرض (آدم وأتباعه) أو باعتباره حزباً معارضاً (إبليس وأعوانه). ويحب الله ما كان خيراً في شرعه أو بالفطرة التي فطر مخلوقاته عليها، أو يجيز ما جعله مباحاً. ويحرم الله ما كان شراً في شرعه أو بالفطرة التي فطر مخلوقاته عليها، أو يكرهه. والعبد قد يختار الخير أو الشر،

---

(١) انظر مثلاً ابن تيمية، مجموع (٨/١٢٣).

(٢) يهدف هذا المثال إلى إثبات الفرق بين خالق الشر وفاعله المتصف به؛ وانظر تكملة المثال تحت عنوان «حرية الاختيار».

ليفعله ويتصف به. ولعل هذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧،٨][١]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥][٢].

فالآية الأولى تؤكد أن كل شيء من خلق الله ولن يستطيع الإنسان خلق شيء من العدم. والآية الثانية تؤكد حرية الاختيار للإنسان واستطاعته فعل الخير أو فعل الشر. وتؤكد الآية الثالثة بأنه لما كان الله يكره الشر فإن المخلوق المكلف إذا اختار فعل الشر مع وجود الخيار الآخر، فإنه هو المسؤول عن هذا الشر.

الخير والشر:

يلاحظ عموماً أن المعيار الحقيقي الذي يميز به بين الخير ودرجاته المتفاوتة والشر ودرجاته المتفاوتة هو الفطرة والتشريعات الربانية. ولكن يلاحظ أيضاً أن الخير والشر في حالات كثيرة أمور نسبية، فما يعتبر خيراً في حالات يعتبر شراً في حالات أخرى[٣]. فالقتل اعتداء يعتبر شراً، وأما دفاعاً عن النفس فيعتبر خيراً. وما يعتبر شراً بالنسبة لمخلوق قد يعتبر خيراً لمخلوق آخر؛ فالمرض - في الظاهر - شر للمريض وأقربائه، وهو مصدر رزق مشروع للطبيب ومن يعمل في المستشفيات..

(١) وانظر الإنسان: ٢.

(٢) وانظر ابن القيم ص ٢٨،٢٩.

(٣) ابن تيمية، مجموع (٢١/١٤).

لا يجري شيء في الكون

إلا بإذن الله

لقد منح الله الإنسان درجة من حرية الاختيار تتم عليها المحاسبة، فهل يستطيع الإنسان عمل شيء بدون مشيئة الله؟ الإجابة المؤكدة هي: لا. يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]. وهنا قد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: إن كان الأمر كذلك فكيف يكون المخلوق المكلف مسؤولاً عن اختياراته؟

إذا علمنا بأن الله هو خالق كل شيء وهو الذي يمنحها للإنسان بما في ذلك حرية الاختيار فإنه يلزمنا إدراك أن الذي منح الإنسان هذه النعم، ومنها النعم الرئيسة سبب المحاسبة، قادر على أن يستردَّها في أية لحظة. فجميع الأشياء تخضع لإرادته. وبعبارة أخرى، فإن الله قادر على أن يجبر مخلوقه على الخير رغم إرادته. وهو سبحانه وتعالى إن ترك العبد يختار الشر لنفسه ويصر عليه فإن الإنسان هو المسؤول عن هذا الاختيار.

ولنزيل هذا الغموض دعنا نأخذ المثال التالي: افترض أن لديك أخاً صغيراً يستطيع فهم الإرشادات (أي لديه عقل يميز به)، وضعت أمامه طبقاً فيه طعام مفيد ولعبة ملوثة بالجراثيم. ثم أفهمته بأن الطعام مفيد لصحته وأن اللعبة ملوثة بالجراثيم ولو لعب بها فإنه سيصبح مريضاً (الهداية والإرشادات). ثم تركت له فرصة الاختيار بينهما (حرية الاختيار النسبية). كل هذا وأنت تراقبه وهو تحت سيطرتك، تستطيع في أي لحظة منعه من الاقتراب من اللعبة وتستطيع أن ترغمه على اختيار الطعام لمصلحته. فإذا اختار اللعبة بمحض إرادته فمن سيكون مسؤولاً عن نتيجة اختياره؟ من المؤكد، إن أخاك هو من يتحمل نتيجة الاختيار.

لو نظرنا إلى تجاربنا المؤلمة التي لم نتسبب فيها ـ على المدى

الطويل ـ مع عدم استبعاد الحياة الأبدية في الآخرة، سنكتشف أن هذه التجارب المؤلمة ـ دائماً ـ لها نهايات سعيدة. فهي دائماً في صالح الإنسان وإن فشل في إدراك الحكمة منها في حينها. ولو أدرك الحكمة منها لفرح بها.

ولو تأملنا ما مضى من حياتنا سنجد ـ بالتأكيد ـ أننا قد تمنينا أشياء بكل حرارة ولم تتحقق فتألمنا لذلك. ثم نكتشف فيما بعد أنها لم تكن في صالحنا ونحن سعداء لأنها لم تحصل. فلو حصلت فلربما ندمنا على نتائجها السيئة بحصول مكروه أو بفوات أشياء أفضل منها بكثير.

كل شيء مسجل في اللوح المحفوظ

(القدر)

لقد وردت كلمة «القدر» في نصوص قرآنية، وأحاديث نبوية عديدة. ومن هذه النصوص المحددة ما ورد في إجابة النبي ﷺ لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان، حيث أجاب النبي ﷺ: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»**[1].

وعموماً يلاحظ أن القارئ عند مراجعة الآيات وثيقة الصلة بـ«القدر» في سياق موضوع هذا البحث، سيجد مدلولين:

١ ـ مدلول يطابق مدلول القضاء بمعنى الأمر الرباني النافذ أو السنة الكونية (السبب والنتيجة الحتمية).

(١) مسلم: الإيمان، بيان الإيمان.

٢ ـ مدلول يعني تحديد واقع الشيء: عناصره وهيئته وزمانه ومكان وقوعه وكيفية حدوثه...، أي علم الله بالأشياء والإحاطة بواقعها وتسجيل ذلك العلم أو كتابته في اللوح المحفوظ. وكما يقول أبو حنيفة: «ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم»(١).

علم الخالق وعلم المخلوق:

إن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة إنما تشير إلى هذا العلم الرباني التام المسجل قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة(٢). ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢](٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥]. كما ورد في السنة النبوية قوله ﷺ: **«ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا كتبت شقية أو سعيدة..»**(٤).

وسئل النبي ﷺ: «أعُلِمَ (أو أيعرف) أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: **«نعم»**. قيل: ففيمَ يعمل العاملون؟ قال: **«كلٌّ مُيسَّر لما خُلق له»**(٥).

ومن الطبيعي أن تكون هناك صعوبة في فهم العلم المطلق لله سبحانه وتعالى واستحالة في الإحاطة الكاملة بحقيقته. وذلك لأن علم المخلوقات ومنها المخلوق المكلَّف محدود بقيود أساسية منها قيد الزمان وقيد المكان

---

(١) أبو حنيفة، الفقه ص ٣٩؛ وانظر ابن تيمية (٨/ ٢٨٠)، العسقلاني، طبعة جامعة الإمام (١/ ١١٨)؛ وعبد الوهاب ص ٥٧؛ والأشقر ص ٢٥.
(٢) مسلم: القدر، حجاج آدم؛ وانظر تعليق صديقي (مترجم صحيح مسلم).
(٣) وانظر: هود: ٦؛ الحج: ٧٠؛ يس: ١٢؛ وتعليق ابن القيم، شفاء ص ٤٠.
(٤) مسلم: القدر، كيفية الخلق.
(٥) البخاري: القدر، جف القلم؛ وانظر مسلم والترمذي، القدر.

وقيد الحواس المحدودة. وذلك بخلاف علم الله الذي لا تقيده هذه القيود ولا غيرها. وفيما يلي نستعرض هذه القيود واحدة فواحدة ليتضح المقصود.

قيد الزمان:

عندما نقول: إن علم الإنسان مقيَّد بقيد الزمان فإننا نقصد أن الإنسان يدرك الأشياء مجزأة على أجزاء صغيرة، ولكي يدرك الصورة الكاملة للأشياء أو الأحداث يحتاج إلى فترة زمنية قد تطول أو تقصر حسب حجم أو تعقيد الشيء الذي يريد إدراكه أو الحدث. فمثلاً لو أراد أن يعرف شكل قطعة من الورق حتى لو كانت قطعة صغيرة فإنه يحتاج إلى فحص كل وجه بشكل مستقل. وبعبارة أخرى، يحتاج إلى فترة زمنية ولا تكفيه النظرة الواحدة. وفي الوقت الذي يلقي فيه النظرة على الوجه الثاني، فإن معلوماته عن الوجه الذي فحصه أولاً، تصبح معلومات تاريخية، قابلة للتشويه أو للنسيان. وعموماً يمكن التمييز بين أربعة أنواع من العلم للمخلوقات:

١ ـ علم اكتسبه في الماضي وهو عرضة للتشويه أو للنسيان.

٢ ـ علم يكتسبه في حاضره وهو أكثر علم المخلوق وضوحاً عنده.

٣ ـ علم سيكتسبه في المستقبل عن شيء سيوجد في المستقبل، ويبقى غيبياً حتى يأتي المستقبل فيصبح حاضراً أو واقعاً.

٤ ـ تخيلات لمجموعة من الأشياء محتملة الحدوث إذا توافرت شروط حدوثه.

ومثال الأنواع الأربعة أنك مثلاً ربما تتذكر ماذا قرأ الإمام في صلاة الفجر قبل يوم أو يومين ولكن لا تتذكر ماذا قرأ في صلاة الفجر قبل أسبوع أو أسبوعين، وبالتأكيد تعرف ما يقرؤه الإمام وأنت تحضر صلاة الفجر معه، ولكن بالتأكيد لا تدري ما سيقرؤه الإمام في الصلاة التالية. وإن مات

الإمام قبل أن يحين وقتها ـ فبالتأكيد ـ لا تعرف ما يحتمل أن يقرأه لو لم يمت.

أما علم الله سبحانه وتعالى فهو علم مطلق لا يقيده قيد الزمان، فالله هو خالق الزمان. لهذا كل شيء عنده حاضر وعلمه بالأشياء علم تام، أي ليس هناك ما يمكن اعتباره غيباً بالنسبة لعلمه سبحانه وتعالى.

نعم قد يستطيع المخلوق التنبؤ بما سيأتي به المستقبل في حالة وجود نظام متكامل منتظم، يتألف من أسباب ونتائج حتمية ومرتبة بطريقة دقيقة ثابتة، وذلك في حالة الإحاطة الدقيقة بهذا النظام كما سبق توضيحه في حالة الساعة. بيد أن مثل هذه الحالات قليلة جداً حتى في عالم الماديات.

ومن آثار قيد الزمان أن المعلومة المحددة قد تكون علماً يقينياً عند أحدنا، وفي الوقت نفسه، تكون معلومة غيبية عند الآخر. فنتائج الامتحان ـ مثلاً ـ عند المدرس الذي يقوم بتصحيح الإجابات تعدُّ علماً يقينياً، أما بالنسبة للطالب أو بالنسبة لأي شخص آخر لم يطلع على النتائج، تعدُّ غيباً. وفي أفضل الحالات قد تكون معلومة تقريبية متوقعة غير مؤكدة. وهكذا يتبين لنا أن علم الله مطلق وعلم المخلوق مقيد.

ولعل الشكل التالي يوضح الفرق بين العلم المطلق الذي لا يقيده قيد الزمان ولا بداية له ولا نهاية، ويمكن التعبير عنه بالدائرة، وعلم المخلوق الذي يقيده قيد الزمان وله بداية ونهاية، ويمكن التعبير عنه بالخط المستقيم.

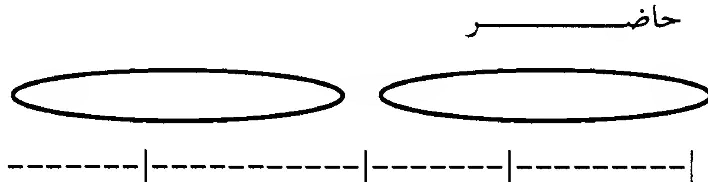

وبعبارة أخرى، فإنه بالنسبة لعلم الله لا وجود لما نسميه بالماضي أو المستقبل، فكل الأشياء والأحداث بالنسبة لعلمه سبحانه وتعالى حاضرة.

قيد المكان:

من الموجودات ما هو في نطاق إدراكنا الحسي، يمكن أن ندركه بحواسنا الخمس وامتداداتها (وسائل التقنية الحديثة أو الطرق الروحية وما يندرج تحت الحاسة السادسة). ومن الموجودات ما هو خارج عن نطاق إدراكنا الحسي (أي هو غيبي). فالناظر من مكان مرتفع ـ مثلاً ـ يرى ما لا يراه الناظر من موقع منخفض. فبعض الأشياء التي يدركها الأول وأصبحت جزءاً من علمه تعتبر غيبيات بالنسبة للآخر وغير موجودة. وكذلك الواقف عند ملتقى شارعين متعامدين يرى ما لا يراه الواقف في أحد الشارعين بعيداً عن نقطة التقائهما. فالشارعان وما فيهما بالنسبة للأول يعتبر علماً محسوساً، أما بالنسبة للآخر فأحد الشوارع وما فيه يُعد من الغيبيات.

أما بالنسبة لعلم الله فلا يقيده قيد المكان أو الموقع، فليس هناك أشياء بعيدة أو مختفية وراء أشياء أخرى. بل كل شيء حاضر، فعلمه مطلق يحيط بكل شيء.

قيد الوسائل المحدودة للإدراك:

حواس الإدراك عند الإنسان محدودة، حتى إن بعض الحيوانات والحشرات لديها حواس أقوى من حواسه. فحدة نظر القطط في الظلام معروفة مثلاً، وكذلك حدة حاسة الشم عند الكلاب لا تخفى على أحد.

وفي المقابل، فإن علم الله لا يقيده قيد الحواس المحدودة. فهو السميع البصير العليم، وصفاته جميعها مطلقة. وعلمه مطلق حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

والقدر ليس إلا تسجيلاً دقيقاً متقناً لكل شيء يقع في الكون، من علم الله الذي لا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة للمعرفة.

ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه «لا ينفع الحذر من وقوع القدر» لأن القدر هو تسجيل رباني دقيق مائة في المائة لما يجري في الواقع. وذلك بصرف النظر عن كون هذا الواقع بالنسبة للمخلوقات أشياء حدثت في الماضي أو تحدث حالياً أو ستحدث في المستقبل أو أنها أحداث محتملة الوقوع.

تسجيل ما سيحدث وليس تحديده:

بهذا يتضح أن كلمة «الكتابة» في هذه النصوص المتعلقة بمسألة القدر تعني تسجيل واقع الأشياء أو وصفها حسب العلم الرباني المطلق. وهي تختلف عن «الكتابة» في سياق النصوص التي تتحدث عن الإرادة الكونية. وبهذا يتضح أن القدر بما فيه من خير وشر لا يتعارض مع قدرة المخلوق المكلف على الاختيار. فهناك فرق بين أن يعلم الله ما سيفعله العبد بالضبط سلفاً ويسجل ذلك، وبين أن يجبره على ما يفعله. ويعجب ابن تيمية من قوم يحتجون بالقدر عندما يعصون الله فيما أمرهم؛ ويرفضون القدر عندما يقع عليهم اعتداء من الآخرين. فهم يحرصون على معاقبة المعتدي والانتقام منه؛ ولا يعذرونهم بالقدر كما يعذرون أنفسهم به[1]. وعموماً فإن المخلوق لا يعلم بما هو مكتوب في علم الله فعليه أن يبذل قصارى جهده في حدود إمكاناته.

ومثال المكتوب في اللوح المحفوظ في المستوى البشري أن يقوم شخص بتسجيل ما يجري في الواقع مما يدركه إدراكاً كاملاً بحواسه الخمس، ويسجله بدقة تامة، أي بنسبة مائة في المائة. فهل يختلف ما يجري في الواقع عن ما قام بتسجيله؟ سيكون هناك تطابق كامل ما دام الإدراك كاملاً والتسجيل تاماً.

---

(١) ابن تيمية، مجموع (٨/١٠٧؛ ٢٤٨ ـ ٢٥٠).

المحاسبة والمكافآت والعقوبات:

إن المؤمن يعتقد بأن الله قد ميَّز المخلوقات المكلفة بإمكانات كبيرة، وأنعم عليها بنعم غزيرة لا تعد ولا تحصى، فجعلها مسؤولة عن هذه الإمكانات وهذه النعم التي يجب أن تحسن صيانتها واستثمارها.

والمسلم يعتقد جازماً بأن الله لا يظلم أحداً، حيث يقول تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦][١].

ومن الطبيعي أن يترتب على هذا التكليف العادل وجود اختبار متقن. فكانت الحياة الدنيا التي ننعم بها داراً للاختبار والحياة، والآخرة داراً للجزاء. وليست النعم والابتلاءات إلا عملات صعبة يجب أن نحسن استثمارها في الدنيا المؤقتة لنجني ثمارها العظيمة في الحياة الأبدية. فإن أحسن الإنسان استثمارها وسخَّرها لخدمة الآخرة، مع عدم نسيان نصيبه في الدنيا كما أمره ربه استحقَّ المكافأة بالحسنات. وهو إن صبر على الابتلاءات كما أمره ربه فإنها تكتب له حسنات.

وتتمثل صعوبة هذا الاختبار في أن النعيم المؤقت قد يتعارض مع النعيم الأبدي، وأن طرق الحصول على النعيم المؤقت محاطة بالمغريات والشهوات، وأما طرق الحصول على النعيم الأبدي فمحفوفة بالمكاره. قال الرسول ﷺ: «**حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره**»، أو: «**حُفت**» في رواية أبي نعيم[٢]. وعلى المخلوق المكلَّف أن يضحي أحياناً بنعيم الدنيا المؤقت الحاضر الزائل ليفوز بنعيم الآخرة الدائم المؤجل، وأن يتغلب على شهواته ويصبر على المكاره حتى يكون من الفائزين في هذا الاختبار. فالدنيا عند الله لا تساوي جيفة جدي مشوَّه ولا جناح بعوضة[٣].

(١) وانظر: آل عمران: ١٨٢؛ الأنفال: ٥١؛ الحج: ١٠.
(٢) البخاري، الرقاق، حجبت.
(٣) مسلم: الزهد والرقائق؛ الترمذي: الزهد

وعلى الإنسان أن يختار بين الحق المُرّ ودعاته القلة، وبين الباطل عذب المذاق وأعوانه الكثر. وعليه أن يصمد أمام جهود إبليس وأعوانه من الجن والإنس الذين يعملون ليل نهار على إغرائه ليكون من الخاسرين في الآخرة.

ويلاحظ أن المحاسبة ليست مبنية على الإنجاز، ولكن على المجهود الذي يبذله الفرد في ضوء الإمكانات التي توفرت له أو أسهم في توفيرها بما منحه الله من قدرات. فقد لا يعيش الإنسان مثلاً مدة طويلة وربما نشأ في بيئة غير مسلمة ثم أسلم، ومع هذا فإن الفرصة أمامه مفتوحة لمنافسة من ولدته أمه مسلماً، وقد يعيش طويلاً وتوفرت له إمكانات فطرية وموروثة أفضل بكثير، وذلك لأنهما على الأقل سيتساويان في النهاية إذا بذل كلاهما أكبر ما عنده من جهد.

بل أكثر من هذا، يمنح الله العبد فرصة للنجاة لآخر لحظة، حيث يقول الرسول ﷺ: «**إن العبد ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ عمل أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار [في علم الله]. ويعمل ـ فيما يرى الناس ـ عمل أهل النار وهو من أهل الجنة [في علم الله]، وإنما الأعمال بخواتيمها**»(١). فالعبرة بما ينتهي عليه الأمر في النهاية .

ولتوضيح هذه الحقيقة وأنها في صالح العبد نضرب المثال التالي:

إن العمر يشبه المدة المحددة للامتحان مع بعض الفوارق، ومنها أن الطالب يحق له إنهاء امتحانه قبل الموعد النهائي. كما أن الموعد النهائي معروف عند الطالب. أما بالنسبة لاختبار الحياة الدنيا فإن الموعد النهائي غير معروف لدى العبد، ولا يحق له محاولة إنهاء حياته متى أراد. ولعل ذلك لكون الاختبار جديراً بالمكافأة أو الجزاء الأبدي، ولأن العمل القليل جداً يكفي لتحديد المصير.

---

(١) البخاري: الرقاق، الأعمال بالخواتيم؛ وانظر ابن تيمية، مجموع (٨/١٤٠).

وافترض أنك مدرِّس وكنت تصحح ورقة طالب أحسن الإجابة في البداية؛ ولكنه في نهاية الأمر شطب عليها وبدأ في كتابة إجابات خاطئة فهل تعطيه الدرجات على آخر إجابة انتهى عندها الاختبار أو على الإجابات التي شطبها؟ مهما يكن السبب فالأصل أن تعطيه الدرجة التي يستحقها على الإجابة التي ثبت عليها في نهاية الاختبار.

والحد الفاصل بين النجاح والفشل يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨،١١٦] والنجاح يتمثل في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والله عفو رحيم في محاسبته للمخلوق المكلَّف، يمهله ويمنحه الفرص الكثيرة للتوبة والرجوع إلى الطريق السوي، ولكن لا يهمله. فقد يغفر الذنوب الكبيرة للمخلوق المكلف ما لم يشرك به أحداً في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ويموت على ذلك؛ وقد يبدل سيئاته حسنات. ولكن لا ضمان لأحد، فعلى المخلوق المكلف أن يبذل قصارى جهده لينجو من النار ويفوز بالجنة في الحياة الأبدية.

أنواع المكافآت والعقوبات:

قد يكافأ المطيع لربه في الدنيا تشجيعاً وتثبيتاً، وقد يعاقب في الدنيا تنبيهاً وتذكيراً. وعموماً فإن الابتلاءات بالنسبة للمؤمن وسائل كسب سلبية، أما النعم فإنها وسائل كسب إيجابية. وأما العاصي فقد يعاقب في الدنيا تذكيراً؛ وقد يحصل على المكافآت في الدنيا ليمدَّه في الغي حتى يجد العذاب الشديد في الآخرة. وأما الكافر فتُعجّل له مكافآته على إحسانه إلى الآخرين في الدنيا، ويلقى عقوبة كفره في الآخرة. وقد يجد العقوبة في الدنيا والآخرة إن أساء إلى غيره.

ومكافآت الآخرة عظيمة، إذ يقول أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فاقرأوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[١]. وعقاب الآخرة شديد لمن يضيع جميع فرص النجاح، ويتجاهل بغرور جميع الإرشادات وكل وسائل التنبيه والتذكير. فأهون أهل النار عذاباً من توضع تحت قدميه جمرة فيغلي منها دماغه[٢].

اللّهم اجعلنا من المستحقين لجنتك وأجرنا من عذابك وارزقنا التوفيق والإخلاص في النية والقول والعمل. آمين.

(١) البخاري: بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة.

(٢) البخاري: الرقاق.

الخلاصة

بخلاف نظرية التطور والنشوء يؤكد القرآن الكريم بأن الله قد خلق الإنسان دفعة واحدة في أحسن صورة وعاقلاً يسمع ويبصر...

ويؤكد القرآن الكريم بأن الله خلق الجن ـ ومنهم إبليس ـ والإنس بصفات خاصة تؤهلهم ليكونوا مخلوقات مكلفة تحاسب على أعمالها في الحياة الدنيا دار الاختبار.

وجعل الله المهمة الأساسية لآدم عليه السلام هي نشر الخير ومحاربة الشر الذي يمثله إبليس وحزبه. وقد شاءت عدالة الخالق أن يمنح فرصة متساوية للجنسين: الإنس والجن. فالإنس يستطيعون اختيار الضلال والانضمام إلى حزب إبليس، وتستطيع الجن اختيار الهداية والانضمام إلى حزب آدم عليه السلام.

وزوّد الله المخلوقات المكلفة (الجن والإنس) بِمِنَح ثلاث خاصة لكي يتمكنوا من تحمل المسؤولية. وهذه المنح هي: العقل المميز، والهداية، وحرية الاختيار.

ويتضح مما سبق من المباحث أن القضاء هو الأمر الرباني المباشر النافذ حتماً، وهو أيضاً السنن الكونية التي خلقها الله، أي السبب والنتيجة الحتمية. ومن السنن الكونية تتكون شبكة عظيمة محكمة من الأنظمة التلقائية (الأتوماتيكية) التي تسيِّر هذا الكون بمشيئة الله. فالله سبحانه وتعالى أوجد الكون ويخلق ما فيه ويسيِّره بقوله كن فيكون (الأمر المباشر) وبالسنن الكونية أو النظم التلقائية التي خلقها.

ولا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذنه ومشيئته، فهو القاهر فوق

مخلوقاته. وذلك لأن الحرية التي أنعم الله بها على المخلوق المكلف ليست مطلقة، فهي مقيدة بمشيئة الخالق المهيمنة عليها هيمنة مطلقة. فالله هو الذي خلق الجن والإنس وجميع المخلوقات، وهو الذي منحها النعم التي تستمتع بها وتستثمرها للحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، ولا سيما في الآخرة، وهو سبحانه وتعالى قادر على تجريد المخلوقات المكلفة منها متى شاء، وهو الذي خلق الأشياء التي يختار المخلوق المكلف منها، ولا يختار إلا بإذنه تعالى.

كما اتضح أن القدر ليس إلا التسجيل الدقيق للأشياء والأحداث من العلم الرباني المطلق الذي يحيط بكل شيء وحدث ولا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة، والذي بالنسبة له كل شيء حاضر. فلا يقع شيء إلا كما تم تسجيله تسجيل وصف، لا تسجيل حكم. ولكن لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى يعرف ما هو مكتوب.

ومن الطبيعي أن يترتب على هذا التكليف العادل وجود اختبار متقن. لهذا كانت الحياة الدنيا التي ننعم بها داراً للاختبار والحياة، والآخرة داراً للجزاء. وليست درجات الفرح والحزن المختلفة ودرجات المتعة والألم سوى وسائل هذا الامتحان. فالاختبار المتقن يمكنه تحديد جميع الحالات التي تتراوح بين النجاح الباهر والفشل الذريع. وليست النعم والابتلاءات إلا عملات صعبة يجب أن نحسن استثمارها في الدنيا المؤقتة لنجني ثمارها العظيمة في الحياة الأبدية.

وتتمثل صعوبة هذا الاختبار في أن النعيم المؤقت قد يتعارض مع النعيم الأبدي، وعلى المخلوق المكلَّف أن يضحي أحياناً بنعيم الدنيا المؤقت ليفوز بنعيم الآخرة الأبدي. كما أن عليه التغلب على شهواته والصبر على المكاره حتى يكون من الفائزين في هذا الاختبار.

كما اتضح لنا أن الله عفو رحيم في محاسبته للمخلوق المكلف، يمهله ويمنحه الفرص الكثيرة للتوبة والرجوع إلى الطريق السوي، ولكن لا

يهمله. فقد يغفر الذنوب الكبيرة للمخلوق المكلف ما لم يشرك به أحداً ويموت على ذلك. وقد يبدل سيئاته حسنات. ولكن لا ضمان لأحد، فعلى المخلوق المكلَّف أن يبذل قصارى جهده لينجو من النار ويفوز بالجنة في الحياة الأبدية.

ومكافآت الآخرة عظيمة، ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وعقاب الآخرة شديد لمن يضيع جميع فرص النجاح، ويتجاهل بغرور جميع الإرشادات وكل وسائل التنبيه والتذكير. فأهون أهل النار عذاباً من توضع تحت قدميه جمرة فيغلي منها دماغه.

قائمة المراجع

- **القرآن الكريم.**
- ابن تيمية، أحمد؛ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية**، جمع وترتيب: عبدالرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ـ الرياض: **الجامع نفسه ١٣٩٨هـ.**
- ابن قيم الجوزية؛ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تصحيح: السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعسالي الحلبي ـ القاهرة: دار الفكر **١٣٩٨هـ.**
- ابن قيم الجوزية؛ **أحكام أهل الذمة**، تحقيق وتعليق: صبحي الصالح ط٣ ـ بيروت: دار العلم للملايين **١٩٨٣هـ.**
- ابن قيم الجوزية؛ **الطب النبوي**، تحقيق: سيد إبراهيم ـ القاهرة: دار الحديث **١٤١١هـ.**
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم** ـ بيروت: دار إحياء التراث العربي **١٣٨٨هـ.**
- أبو حنيفة، النعمان بن ثابت؛ **الفقه الأكبر**، شرح محمد بن عبدالرحمن الخميس ـ الرياض: دار المسلم **١٤١٤هـ.**
- ابن حيدرة، شيث بن إبراهيم، **حز الغلاصم في إفحام المخاصم**، تحقيق عبدالله عمر البارودي ـ بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية **١٤٠٥هـ.**
- إسماعيل، سعيد، **كشف الغيوم عن القضاء والقدر** ـ الرياض: دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي **١٤١٧هـ.**
- الأشقر، عمر سليمان، **القضاء والقدر** ـ الكويت: مكتبة الفلاح **١٤١١هـ.**
- البخاري، محمد بن إسماعيل، **خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل**، تحقيق وتعليق: أبو محمد سالم بن أحمد عبدالهادي السلفي، وأبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني الأبياني ـ القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي **١٤٠٨هـ.**
- البخاري، محمد بن إسماعيل، **خلق أفعال العباد**، تحقيق عبدالرحمن عميرة ـ الرياض: دار المعارف السعودية **١٣٨١هـ.**

- الخطيب، عبدالكريم؛ **القضاء والقدر بين الفلسفة والدين**، ط ٢ـ القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٧٩م.
- **مشيئة الله ومشيئة العباد** ـ الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع ١٤٠٠هـ.
- الدسوقي، فاروق أحمد، **القضاء والقدر في الإسلام** ـ بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ.
- الرفاعي، محمد نسيب، **تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير**، المؤلف ١٣٩٠هـ.
- شعراوي، محمد متولي، **القضاء والقدر**، **معجزات الرسول**، **إعجاز القرآن**، **مكانة المرأة في الإسلام**، إعداد وتقديم: أحمد فراج ـ القاهرة: دار الشروق ١٩٧٥م.
- الشنقيطي، محمد الأمين محمد المختار الجكني، **أضواء البيان في إيضاح القرآن** ـ الرياض: المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٣هـ.
- صيني، سعيد إسماعيل، **قواعد أساسية في البحث العلمي** ـ عمان: مؤسسة الرسالة ١٤١٥هـ.
- صيني، سعيد إسماعيل، **مدخل إلى الإعلام الإسلامي** ـ القاهرة: دار الحقيقة للإعلام الدولي ١٤١١هـ.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ـ القاهرة: دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ترقيم وتصحيح ومراجعة: محمد فؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب وقصي محب الدين الخطيب ـ القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ.
- قطب، سيد، **في ظلال القرآن** ـ جدة ١٤٠٦هـ.
- مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٤هـ.